السفير 2009/12/5

عن تقي الدين الصلح في ذكراه

الكتاب: تقيي الدين الصلح. سيرة حياة وكفاح
المؤلف: عمر زين
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، مجلدان، بيروت 2007.

عبد الرؤوف سنّو
أستاذ في الجامعة اللبنانية

أن يكتب المحامي عمر زين عن الرئيس الراحل تقي الدين الصلح، هو أمر يختلف عن أي شخص آخر يقوم بهذه المهمة، لأن عمر زين ليس مؤرخاً، بل كان رفيقاً وصديقاً وتلميذاً ومستشاراً لهذه المدرسة الوطنية التي علمته دروسا في سلوك دروب الحياة والسياسة. فمنذ أن التقاه للمرة الأولى حتى رحيله، نظر عمر زين إلى الصلح «كزعيم ومعلم وقائد... وحالة لبنانية عروبية ووطنية خاصة...». هذه الكلمات القليلة المعبرة تروي سيرة تقي الدين الصلح ونهجه وتاريخه الوطني والعروبي، حياة صاحب الطربوش الأحمر، هذا الطربوش الذي رافقه طيلة حياته ونادراً ما ترجل عن رأسه، حتى أنه رافقه إلى مثواه الأخير. وعن طربوشه، قال الصلح إنه يرمز إلى «الارتباط بالتراث، وليس هناك ما يمنع الإنسان من أن يقوم بالاتصال بكل ما هو حديث ويبقى محتفظاً بتراثه ».

حدد زين الهدف من وراء تأليف كتابه، وهو رغبته «... في استدعاء الحالة اللبنانية الأصيلة لتكون حاضرة في هذا المنعطف التاريخي الذي يمر به لبنان... من أجل استدعاء الآباء المؤسسين للإسهام في الواقع اللبناني المرّ، ومحاولة لاستلهام روحه ومبادئه (روح تقي الدين الصلح (حتى تعين على تجاوز الحالة الراهنة، حالة الاحتراب التي تنذر بالسوء». وكأن الكاتب يريد أن يقول لنا إن لبنان يفتقد اليوم رجالات الاستقلال الكبار لتلمس طريق الخلاص من الأزمات التي تضربه منذ نهاية الستينيات من القرن العشرين. لذا، جعل مؤلفه بانوراما على مساحة قرن، لتأريخ مسيرة تقي الدين الصلح وأخذ العبر والدروس منها، فضلا عن دوره في العمل السياسي، وكشاهد على عصر غزير بأحداثه التاريخية وتحولاته الخطيرة التي يتابعها زين بدقة وموضوعية لافتتين، في مجلدين على مدى 1349 صفحة وعشرات الصور الفريدة: الحربان العالميتان الأولى والثانية وتتوسطهما ثورة عربية كبرى ضد العثمانيين، وتآمر غربي على مصير المشرق العربي، ونشوء حركة القومية العربية، وولادة دولة لبنان الكبير وعقد الميثاق الوطني، واستقلال لبنان والبلدان العربية وتهويد فلسطين. ولا تتوقف هذه التحولات عند حدود إنشاء الكيان الصهيوني، بل شملت الصراع العربي ـ الإسرائيلي، فضلا عن حرب لبنان بين عامي 1975 و1990، التي شكلت طعنة لآمال تقي الدين الصلح في أن يرى بلده وطنا لجميع أبنائه، لا مزرعة لطوائف تتنازع وتتقاتل، وخارج يتلاعب بمصير هذا الوطن الصغير بأياد لبنانية .

بذاكرته التي لا تخونه أبدا، وأيضا بالوثائق والصور التي ينفرد بامتلاكها نوعاً وكماً، وبالمقالات التي كُتبت عن تقي الدين الصلح ومراسلاته مع أصدقائه، أو المقابلات التي أجريت معه، يستعيد عمر زين مشواره الطويل مع تلك الزعامة اللبنانية ومسيرتها ونضالها، فيقدم لنا سجلا عن الصلح في المدرسة والجامعة، وفي العمل في مجالات التدريس والصحافة والأدب والدبلوماسية والحركة الجماهيرية، ثم خوضه معاركه السياسية والانتخابية ودخوله إلى البرلمان والوزارة، وصولاً إلى تبوئه رئاسة الحكومة بين عامي 1973 و1974، وعجزه عن تشكيل حكومته الثانية في العام 1980 .

إنها مسيرة طويلة مشرفة بالفعل لرجل تشرّب الثقافة العربية وانفتح على الثقافتين الفرنسية والأميركية وانغمس في أحداث وطنه ومحيطه رافضا العنف وداعيا إلى الحوار والاعتدال، ما مكّنه من وضع منهج يقوم على الوطنية والانفتاح على الآخر والاعتراف به وتفهم طموحاته. فكان عميق التفكير مرهف الأحاسيس وشجاعا بمشاعره الوطنية، من دون أن يبتعد عن العروبة المتأصلة في عائلته، حتى عن إنسانيته، إذ وجد نفسه يعيش هموم الشعوب وسعيها إلى التحرر من رواسب الاستعمار، مسخّراً قلمه كصحافي للدفاع عنها وطرح قضاياها. إن الجمع ما بين اللبنانية والعروبة، هو ما جعل تقي الدين الصلح مقبولا من جميع اللبنانيين، وأن يكون له أصدقاء من مختلف طوائف البلاد .فإصراره على خصوصية لبنان في محيطه العربي منذ ثلاثينيات القرن الماضي، ورفضه الانجرار وراء تيار إسلامي، وعمله بصمت على الميثاق الوطني مع يوسف السودا وغيره من رجالات الاستقلال، جعله يحظى باحترام القيادات المسيحية، لقد اعتبر الصلح أن مهمته الوطنية تقضي بأن يقنع المسيحيين بالعروبة التي لا تذيبهم في محيطهم العربي، وكان يقول: «لقد صنعنا من لبنان حوض سباحة صغيراً يتدرب فيه المسيحيون قبل أن نأخذهم إلى البحر العربي الكبير». أما تمسكه بالعروبة ودعمه القضايا العربية المصيرية، فجعلاه مرحباً به في أوساط المسلمين، الذين طالبهم بالولاء للبنان أولا. من هنا، مكّنته مواقفه الوطنية من تشكيل «حكومة كل لبنان»، عشية تخمّر كل مكونات حرب لبنان، من شرخ طائفي وتدخل الخارج نصيرا لهذا الفريق اللبناني أو ذاك .

لقد عرف تقي الدين الصلح بوطنيته وبعده عن الطائفية والمذهبية اللتين اعتبرهما أشد وباء يصيب لبنان .ففي العام 1936، مثّل أعيان كل من صور وصيدا وجبل عامل في ذكرى أربعين الملك فيصل الأول. وهو وإن لم يستطع إلغاءه الطائفية السياسية خلال رئاسته للحكومة، لأن المناخ الطائفي عشية حرب لبنان العام 1975 كان شديد التطرف والهياج، لكنه تمكن من تطبيق شعاره «كل الوظائف لكل الطوائف»، من دون أي اعتبار لحصر وظيفة ما بطائفة معينة .وهذا ما يحملنا على الافتراض أن تقي الدين الصلح كان بإمكانه تحقيق إنجازات أكثر على صعيد إلغاء الطائفية السياسية، في ما لو عاشت حكومته أكثر من عام ونصف، ولو كانت أوضاع لبنان أقل تشنجاً وتوتراً .

ويستوقفنا في كتاب عمر زين موقف تقي الدين الصلح من القضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي. كانت اسرائيل تريد إخراج لبنان من دائرة الصراع معها. في المقابل، عمل الصلح على أن يكون لبنان في صلب القضية الفلسطينية كدولة مساندة لا دولة مواجهة. ورأى أن لبنان، بحضوره الدولي والدبلوماسي، يستطيع أن يساند القضية الفلسطينية في المحافل الدولية، فيما تهتم دول المواجهة العربية بالعمل العسكري ضد اسرائيل، تحت الشعار الذي أطلقه الرئيس عبد الناصر: «ما يؤخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة»، معتبرا أن ألف قرار أممي لا يعيد الأراضي العربية

المحتلة. فأرسل فؤاد نقّاع، وزير الخارجية في حكومته إلى أميركا الجنوبية للدعاية للقضية الفلسطينية. وتبين أن ما حققه نقّاع كان شديد الفعالية، بحيث استاءت إسرائيل من «الحرب» الدبلوماسية التي يشنها عليها لبنان في المهجر .ولما رأى الصلح أن الصحافة اللبنانية أهملت الحديث عن رحلة نقّاع، استقبل وزير خارجيته في مطار بيروت تقديرا لنجاحه في مهمته، خارقا بذلك كل الأعراف البروتوكولية. لقد اعتبر الصلح أن خروج المنظمات الفلسطينية من لبنان العام 1982 كان اليوم الأقسى في حياته، وأنه إذلال للعرب قبل الفلسطينيين. إلا أنه كان واقعياً كفاية، في ظروف حرب لبنان، انه لا يمكن حل المسألة اللبنانية بمعزل عن القضية الفلسطينية . وفي تشرين الثاني 1988، رحل رجل التوازنات والاعتدال، فكتب بلال ضاهر في جريدة اللواء البيروتية بتاريخ 30 تشرين الثاني ما يلي: «تقي الدين الصلح... مات... عملاق آخر من عمالقة لبنان هوى... صرح كبير من صروح الاستقلال تلاشى... ركن من أركان الدولة غاب... رحل... وفي قلبه المفعم بالوطنية والإخلاص والوفاء، خوف رهيب على الكيان وعلى الوطن». فهل خوف هذا الزعيم الوطني في محله؟